

مفهوم الفصاحة عند مفكر البرازيل (679هـ) في

كتاب أصول البلاغة

أ/مهدي عز الدين شنين

جامعة غرداية

غرداية ص ب 455 غرداية 47000، الجزائر

أفصح اللين : سكنت رغوته⁽⁴⁾. هذا عن أصل الوضع بالنسبة للمادة اللغوية المتكونة من الفاء والصاد والحاء في تركيبها الثلاثي الذي حدده ابن فارس بالخلوص والصفاء.

وإذا تأملنا ما قاله ابن فارس في حده إياها نجده قد تكلم عن شيئين اثنين يمكن أن ينسب لهما هذا الوصف (الفصاحة، أحدهما اللسان والآخر الكلام ؛ فاللسان كما يرى ابن فارس- إذا أسند له هذا الوصف فإنه يعني الطلاقة وهذه الأخيرة يُشم منها رائحة الصفاء ، ألا يعني ذلك عدم اعتراء جراحة النطق عند من تلبس بها أي مرض من أمراض الكلام كالتأتأة مثلا؟ وهذا لا شك خلوص وخلوص كما ذكر صاحب التعريف.

والأمر الآخر (الكلام) فذكر ابن فارس أنه إذا قيل كلام فصيح فإن ذلك يعني أنه عربي ، والسؤال المطروح هنا هل يعني ذلك أن كل كلام غير عربي لا يعد فصيحاً؟

الفصاحة في الاصطلاح:

أما عن معنى هذا اللفظ في اصطلاح جماعة البلاغيين فلا شك أنه لا يعدو كونه يتضمن الصفاء والخلوص ، فإذا أخذنا على سبيل المثال تعريف أبي هلال العسكري الفصاحة ، فإننا نجده يدير في فلك التعريف اللغوي السابق ، حيث يقول : فأما الفصاحة فقد قال قوم: إنها من قولهم: أفصح فلان عما في نفسه إذا أظهره ، والشاهد على أنها هي الإظهار قول العرب: أفصح الصبح إذا أضاء. وأفصح اللين إذا انجلت عنه رغوته فظهر. وفصح أيضاً. وأفصح الأعجمي إذا أبان بعد أن لم يكن يفصح وبيّن ، وفصح اللحن إذا عبّر عما في نفسه وأظهره على جهة الصواب دون الخطأ⁽⁵⁾.

الفرق بين الفصاحة والبلاغة:

لا شك أن الباحث في الدرس البلاغي- لا سيما

مما لا شك فيه أن العرب قد عاشت قبل بزوغ فجر الإسلام ليلاً حالكا تحت وطأة التعصب القبلي والأخذ بالثارات ، بحثاً عن مكانة يُثبت بها عنصر الوجود المطلوب بكل مظاهره ، سواء داخل القبيلة أو خارجها ، مما ساعد على إضرام نار الحرب مستعرة في حمى شبه جزيرة العرب ، وفي خضم هذا كله ليس من الغريب أن تجد من تجهّز وأعدّ عدته لها بكل ما أوتي من سلاح بما في ذلك (الكلمة) نظراً لما تتركه من أثر لدى المتلقي إن سلّبا أو إيجاباً ، قال الشاعر⁽¹⁾:

يَمُوتُ الْفَتَى مِنْ عَثْرَةِ لِسَانِهِ
وَلَيْسَ يَمُوتُ الْمَرْءُ مِنْ عَثْرَةِ الرَّجْلِ
فَعَثْرَتُهُ مِنْ فِيهِ تَرْمِي بِرَأْسِهِ

وَعَثْرَتُهُ بِالرَّجْلِ تَبْرَأَ عَلَى مَهْلٍ

ونظراً لذلك فقد تنبأت هذه الأخيرة مكانة عند أربابها عالية واهتموا بها أيما اهتمام ، حتى قيل إنهم كانوا ينحرون الجزور ويطعمون الطعام إذا تحقق لديهم ثلاث ، إذا وُلد لهم غلام أو وضعت لهم فرس ، أو نبغ فيهم شاعر⁽²⁾.

وحملهم الاهتمام بها على أن أقاموا لها سوقاً تعرض فيه (الكلمة) وتسام كما تسام البضاعة وتُتَمَن ، عن طريق ملاحظات كان يبيدها الشعراء فيما بينهم ، مما أدى إلى ظهور مصطلحات لغوية عديدة ، لعل من أبرزها مصطلح (الفصاحة) الذي سنحاول التعرف عليه عند عالم من علماء البلاغة ، عاش في القرن السابع الهجري ألا وهو كمال الدين البركاني⁽³⁾. وقبل أن نخوض في ذلك نرى أن لا بأس في تعريف الفصاحة لغة حتى يتسنى للقارئ ربط مفهومها الاصطلاحي بأصل الوضع.

الفصاحة لغة:

يقول أحمد بن فارس في معجمه المقاييس مادة (فصح): "الفاء والصاد والحاء أصل يدل على خلوص في شيء ونقاء من الشوب من ذلك: اللسان الفصيح: الطليق ، والكلام الفصيح: العربي ، والأصل :

اسمه ونسبه: الشيخ كمال الدين ميثم بن علي بن ميثم البحراني. ولد الشيخ البحراني عام 636 هـ في البحرين⁽⁹⁾.

مكانته العلمية:

لقد كان معاصراً للخاجة نصير الدين الطوسي ، وقيل: إن الخاجة كان تلميذه في الفقه ، وهو تلميذ الخاجة في الكلام ، والواقع أنه اشتهر أكثر ما اشتهر في الكلام ، حتى أنه انتهج الأسلوب الكلامي والفلسفي في شرحه على نهج البلاغة. وكان الشيخ البحراني مشهوراً في عصره ، حتى أطلق عليه: الفيلسوف ، والمحقق ، وزبدة الفقهاء والمحدثين ، والمتكلم الماهر ، وعده الطريحي في الفقه ، كالخاجة نصير الدين في الكلام⁽¹⁰⁾.

أقوال العلماء فيه:

نخص البعض فنذكر منها:

1- قال الشيخ سليمان البحراني فيه: "كان ذا كرامات باهرة ومآثر زاهرة ، ويكفيك دليلاً على جلالته شأنه ، وسطوع برهانه ، اتفاق كلمة أئمة الأعصار ، وأساطين الفضلاء في جميع الأمصار على تسميته بالعالم الرباني ، وشهادتهم له بأنه لم يوجد مثله في تحقيق الحقائق ، وتنقيح المباني..."⁽¹¹⁾.

2- وقال فيه الشيخ عباس القمي: "العالم الرباني ، والفيلسوف المتبحر المحقق ، والحكيم المتأله المدقق ، جامع المعقول والمنقول، أستاذ الفضلاء والفحول..."⁽¹²⁾.

3- كما قال فيه السيد محمد باقر الخونساري: "كان من العلماء الفضلاء المدققين ، متكلماً ماهراً..."⁽¹³⁾.
أساتذته: منهم⁽¹⁴⁾:

1- الشيخ محمد الطوسي ، المعروف بالخاجة نصير الدين.

2- الشيخ أسعد بن عبد القاهر الأصفهاني.

3- الشيخ علي بن سليمان البحراني.

تلامذته: منهم:

1- الشيخ محمد الطوسي ، المعروف بالخاجة نصير الدين.

2- الشيخ الحسن الحلّي ، المعروف بالعلامة الحلّي.

3- الشيخ محمد بن الجهم الأسدي الحلّي.

4- الشيخ عبد الله بن صالح البحراني.

5- السيد عبد الكريم بن طاووس.

مؤلفاته: منها⁽¹⁵⁾:

1- منهاج العارفين في شرح كلام أمير المؤمنين.

2- استقصاء النظر في إمامة الأئمة الاثني عشر.

3- النجاة في القيامة في تحقيق أمر الإمامة.

4- شرح الإشارات للشيخ علي البحراني.

5- شرح مائة كلمة لأمر المؤمنين.

المبتدأ- قد استوقفه موضوع الفصاحة والبلاغة ، إذ يمثل البوابة الكبيرة إلى عالم البلاغة ، ونظرًا للبس الشديد بينهما فإن الباحث يتردد فيما يخص الموضوع من جهة الماهية وتجعله يتساءل حولها: هل الفصاحة تعني البلاغة؟ وإذا كان الأمر كذلك فلم سمي العلم الذي يدرس هذا الأمر بعلم البلاغة ولم يُسم علم الفصاحة مادام الأمران يمثلان شيئاً واحداً؟ وليس الأمر بغريب مادام إمام البلاغة عبد القاهر الجرجاني وقف حائراً أمام الموضوع إذ يقول في كتابه (الدلائل): "ولم أزل منذ خدمت العلم أنظر فيما قاله العلماء في معنى الفصاحة والبلاغة ، والبيان والبراعة ، وفي بيان المغزى من هذه العبارات ، وتفسير المراد بها ، فاجد بعض ذلك كالرمز والإيماء ، والإشارة في خفاء..."⁽⁶⁾ ونحن نرى علة الجمع بينهما راجعة إلى ما يلي:

1- ارتباط المصطلحين كليهما ارتباطاً شديداً بالمنشئ وكلامه.

2- اللبس الشديد بين اللفظين والتقارب بينهما أدبياً إلى توهم التماهي بينهما.

3- تساهل الدارسين وتجاوزهم أحياناً في وصف المتكلم وكلامه بلوصفين دون مراعاة مجال المفارقة بينهما.

ويبقى الإشكال قائماً رغم أن الكثير حاول التفريق بينهما ، علماً أننا نميل برأينا جهة من قال بالفرق بينهما ، وذلك كأبي هلال العسكري في الصناعتين على أن رأيه تضارب في الموضوع ، فمرة قال بعدم الفرق ، وأخرى قال بعكس ذلك ، حيث قال: "فأما الفصاحة فقد قال قوم: إنها من قولهم: أفصح فلانٌ عما في نفسه إذا أظهره ، والشاهد على أنها هي الإظهار قول العرب: أفصح الصبح إذا أضاء. وأفصح اللبن إذا انجلت عنه رغوته فظهر. وفصح أيضاً. وأفصح الأعجمي إذا أبان بعد أن لم يكن يفصح ويبين، وفصح اللحن إذا عبّر عما في نفسه وأظهره على جهة الصواب دون الخطأ. وإذا كان الأمر على هذا فالفصاحة والبلاغة ترجعان إلى معنى واحد وإن اختلف أصلاهما ، لأن كلّ واحد منهما إنما هو الإبانة عن المعنى والإظهار له..."⁽⁷⁾ وقال في مقام آخر: "...فعلى هذا تكون الفصاحة والبلاغة مختلفتين ، وذلك أنّ الفصاحة تمام آلة البيان فهي مقصورة على اللفظ ، لأن الآلة تتعلق باللفظ دون المعنى ، والبلاغة إنما هي إنهاء المعنى إلى القلب فكأنها مقصورة على المعنى"⁽⁸⁾. هذا عن ماهية الفصاحة عند غير ميثم البحراني فما حقيقتها عنده؟

حقيقة الفصاحة والبلاغة عند كمال الدين ميثم البحراني:

نظراً لكون ميثم البحراني من البلاغيين المغموين ، ارتأينا قبل الخوض في الموضوع أن نعرّف به ، وبكتابه.

1- التعريف بميثم البحراني:

التعريف اللغوي الذي يمثل أصل الوضع بالتعريف الاصطلاحي الذي يمثل بدوره أصل الاستعمال والواقع الإجرائي-الذي يمكن به أن تنتقل اللفظة لتدل على معنى غير الأصل ، وهذا أكثر من أن يحصى في اللغة- نجد أن هناك علاقة جليةً بينهما ، إذ القاسم المشترك بينهما هو (الخلوص والخلو).

وحتى في حديثه المستفيض عن البلاغة ركّز على الفصاحة أصلاً وهذا ما دل عليه الوصف وهو قوله (الفصيح) في قوله الآتي حيث يقول الشيخ في حده البلاغة: "وأما البلاغة فهي كون الكلام الفصيح موصلاً للمتكلم إلى أقصى مراده..."⁽²⁰⁾ حيث يفهم منه مايلي: أن الكلام إذا لم يساعد المخاطب على عملية الفهم-وهذا ما يمكن تسميته بالسلبى-لا يوصف بالبلاغة حتى ولو كان فصيحاً ، وأن الكلام غير الفصيح لا يمكن أن يبلغ غايته بأي حال من الأحوال ، كما يشير أيضاً إلى أن التفهيم يجب أن يكون في أقصى غايته

ونجده يفرق بين الفصاحة والبلاغة بما يراه نفسه في الموضوع حيث قال: "...وأكثر البلغاء لا يكادون يميزون بينهما"⁽²¹⁾.

ثم قال في المبحث الثالث من المقدمة متحدّثاً عن الفصاحة نوماً: "موضوع علم الفصاحة هو: الكلام الدال على معناه بإحدى الدلالات الثلاث"⁽²²⁾ من حيث هو على حالة موجبة لقرب فهمه ، ولذاذة استماعه"⁽²³⁾ يلاحظ من خلال التعريف أن البحراني جعل من الفصاحة علماً ، وهذا أمر لم نعهده عند أكثر علماء البلاغة ، وإنما المألوف عنهم نسبة العلمية إلى البلاغة بليل تسمية الباب كله بها ، ولسنا ندري ما الذي حمل الشيخ إلى هذا ؟ أليكون ذلك قصداً منه واعتقاداً ؟ أو يكون ذلك تصحيحاً طراً على إحدى النسخ وسار ذلك على الباقيات ، أم تراه قد أراد البلاغة ومن نقل عنه أحال ذلك إلى الفصاحة أم...؟ وإذا كانت الأولى- وهذا الذي نحن نعتقده فهذا شيء يُحسب له ، وذلك أنه نسب العلم للفصاحة ولعل الذي جعله يقول بذلك هو اعتقاده وتحويله على منزلة الفصاحة ودورها في الكلام ، إذ لولا الفصاحة- على ما نعتقد- لتساوى الأعجمي والعربي ، والعربي الفصيح وغيره ، ولكان مراد الكلام ناقصاً وربما لم يفهم أصلاً!!! وبهذا لعلنا نكون قد اقتربنا من إدراك السبب الذي جعل البحراني ينسب العلم للفصاحة والجدير بالذكر هو أنه لما تعرض لموضوع البلاغة أغفل عنها شقها الآخر ألا وهو العلم الذي نحسبه غير منفك عنها ، حيث قال: "وموضوع البلاغة: هو الكلام الفصيح"⁽²⁴⁾ وبناءً على أن عنوان الكتاب (أصول البلاغة) نظن أن الأصل كله راجع إلى الفصاحة ذلك أن البحراني بنى نظريته هذه على هذه القاعدة وعلى النحو الذي يلزمنا بالقول إنه عالج الدرس البلاغي على نحو فريد ، يقول البحراني في مقدمة الكتاب حول هذا السياق: "وبعد، فهذه أصول في علم البلاغة جرتئها من الحشو المنموم ، وضبطتها بالحدود والرسوم ليسهل

6- قواعد المرام في علم الكلام.

7- اختيار مصباح السالكين.

8- شرح حديث المنزلة.

9- المعراج السماوي.

10- مصباح السالكين.

11- الوحي والإلهام.

12- البحر الخضم

13 - أصول البلاغة⁽¹⁶⁾ ، ويسمى تجريد البلاغة

أيضاً، وهو الكتاب الذي أثرناه لتجلية مصطلح الفصاحة عند صاحبه في هذا المقام.

وفاته:

توفي الشيخ البحراني عام 679 هـ في البحرين ، ودفن فيها.

2 كتاب أصول البلاغة:

يعد كتاب أصول البلاغة من الكتب غير المشهورة بالقدر الذي يكفي بأن يكون في متناول كل باحث، وربما يرجع سبب ذلك، لندرة نسخه ، ولعل ذلك بعدم اهتمام دور النشر بطباعته.

فالكاتب قد حققه عبد القادر حسين ، وتعداد صفحاته سبع عشرة ومئة صفحة إذا استثنينا الفهرس ، صدره صاحبه بمقدمة تكلم فيها عن تميزه من غيره ، حيث أشار إلى أنه خلا من الحشو أو التطويل اللذين ربما أعاقا سبيل طالب العلم ، فكان هدف المؤلف أن يودعه معاني كثيرة بألفاظ قليلة وقد أسسه على مقدمة وجملتين⁽¹⁷⁾.

حيث تحدث في المقدمة عن مفهوم الفصاحة والبلاغة ، وتحدث في الجملة الأولى عن الفصاحة المتعلقة بالمفردات ، ثم المتعلقة بالكلمات المركبة.

ونجده في الجملة الثانية يتحدث عن النظم. وبعد أن عرفنا البحراني وكتابه ، ننتقل الآن إلى موضوعنا الذي يهنا منه في هذا المقام ، ألا وهو مفهوم الفصاحة.

مفهوم الفصاحة عند البحراني:

يقول كمال الدين البحراني في مقدمة كتابه أصول البلاغة وذلك في المبحث الثاني عن مفهوم الفصاحة: "أما الفصاحة فهي خلوص الكلام من التعقيد الموجب لقرب فهمه، ولذاذة استماعه، وأصله من الفصيح وهو اللين إذا أخذت رغوته وذهب لبأؤه"⁽¹⁸⁾.

والمأمل في مقاله البحراني عن الموضوع يلاحظ أنه قد ركز على قضية الخلوص ، فإذا كانت فصاحة اللين ترتبط بخلوصه وخلوه من رغوته ، فإن فصاحة الكلام مرتبطة بخلوه مما يشوبه من التعقيد الذي ينأى بالعقول عن الفهم ، وليس هذا فحسب بل يجعل أذن السامع تتلذذ بما تسمعه من هذا الفصيح ، كما يجده قد تكلم عن الفصاحة على المستوى التركيبي كما هو الحال عند الكثير من الباحثين⁽¹⁹⁾. وإذا جئنا لمقارنة

الأخريين (العقد والنسبة) ، فنحسب إغفال البحراني إياها كونها لا تخص تخاطب البشر فيما بينهم فحسب ، بل هي خطاب بين بني البشر حيناً ، وبينهم وبين الخالق أحياناً كثيرة ، يقول الجاحظ في هذا: "وأما القول في العقد ، وهو الحساب دون اللفظ والخط ، فالدليل علي فضيلته ، وعظم قدر الانتفاع به ، قول الله عز وجل: ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَاعِلُ اللَّيْلِ سَكَنًا وَالشَّمْسِ قَمَرًا حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ الأنعام: 96 ، وقال جل وتقدس: "الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ" الرحمن: 1-5 ، وقال جل وعز: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ يونس: 5 ، وقال: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتَيْنِ فَمَحْوِنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابِ﴾ الإسراء: 12 ، والحساب يشتمل على معان كثيرة ومنافع جليلة ، ولولا معرفة العباد بمعنى الحساب في الدنيا لما فهموا عن الله عز وجل معنى الحساب في الآخرة . وفي عدم اللفظ ، وفساد الخط ، والجهل بالعقد فساد جل النعم ، وفقدان جمهور المنافع ، واختلال كل ما جعله الله عز وجل لنا قواماً ، ومصلحة ونظاماً⁽²⁸⁾

وقال مبيناً النسبة: "وأما النسبة فهي الحال الناطقة بغير اللفظ ، والمشييرة بغير اليد ، وذلك ظاهر في خلق السموات والأرض ، وفي كل صامت وناطق ، وجامد ونام ، ومقيم وظاعن ، وزائد وناقص ، فالدلالة التي في الموات الجامد ، كالدلالة التي في الحيوان الناطق ، فالصامت ناطق من جهة الدلالة ، والعجماء معربة من جهة البرهان ، ولذلك قال الأول: (سل الأرض فقل: مَنْ شَقَّ أَنْهَارَكَ ، وَغَرَسَ أَشْجَارَكَ ، وَجَنَى ثِمَارَكَ ؟ فَإِنْ لَمْ تَجِبْكَ حَوَاراً ، أَجَابَتْكَ أَعْتَاباً) . وقال بعض الخطباء: (أشهد أن السموات والأرض آيات دالات وشواهد قائمات ، كل يؤدّي عنك الحجة ويشهد لك بالرّبوبيّة ، موسومة بآثار قدرتك ، ومَعَالِم تدبيرك ، التي تجلّيت بها لخلقك ، فأوصلت إلى القلوب من معرفتك ما أنسها من وحشة الفكر ، ورجم الظنون...) ⁽²⁹⁾

ويبدو أن البحراني قد ربط الفصاحة بهذه الدوال الثلاث فقط دون غيرها ليتوفر لدينا عنصراً الفهم والإفهام معطوفاً عليهما الإحساس باللذة الصوتية ، ولعله بذلك يكون قد اشترط تحقق ذلك بضرورة حضور تلك المسببات.

هذا بالنسبة لحد الفصاحة وموضوعها ، أما إذا انتقلنا إلى باقي ما كتبه البحراني في حيثيات الفصاحة فنجد أنه قد أسهب في سبيل بيان ذلك ، حيث استعان بالمبحث الصوتي ، إذ تكلم عن مخارج الحروف وهي عنده ستة عشر مخرجاً بدءاً من أقصى الحلق وصولاً

حفظها...⁽²⁵⁾ ويقول محقق الكتاب عبد القادر حسين في هذا السياق: "والحقيقة أن الكتاب كما وصفه مؤلفه ليس فيه الحشو والتطويل الذي لا يحتاج إليه من يريد أن يرشف من ينابيع البلاغة ، ويترود من قوتها ، ويلم بأطرافها ، دون أن يبذل في تحصيلها الجهد الكبير ، أو العناء الشديد ؛ ليس فيه إغراب الفلاسفة ، ولا ترمت المناطقة... وإنما صنف الكتاب بعبارة سلسة ، وهنئ واضح ، بغية الوصول إلى الفصاحة والبلاغة ، متدرجاً من الحرف ، إلى الكلمة ، إلى العبارة ، إلى نظم الكلام في سهولة ويسر... أما التقرّيعات والخلافات التي تملأ عادة كتب البلاغة وخاصة بعد السكاكي 626 هـ فنجد الكتاب عربياً منها وبعيداً عنها"⁽²⁶⁾

ونعود لنستكمل مناقشة البحراني في تعريفه لموضوع علم الفصاحة كما سماه هو - وذلك عند قوله: "موضوع علم الفصاحة هو: الكلام الدال على معناه بإحدى الدلالات الثلاث من حيث هو على حالة موجبة لقرب فهمه ، ولذاذة استماعه" فنقول إنه جعل موضوعها الكلام المفيد ويشترط فيه شيئين اثنين: أحدهما قرب الفهم وهنا نستوقف القارئ قليلاً قوله (قرب الفهم) لا يعني بحال الفهم نفسه ، فهل يقصد البحراني من وراء ذلك أن السامع لو تأتى له بعض الفهم فقط وليس كل الفهم جاز أن يقال على الكلام إنه فصيح؟ أم يحمل كلامه على المجاز بمعنى أنه أراد الفهم عينه؟

أما الشيء الآخر هو إيجابه لحدوث لذاذة الاستماع وهنا وقفة أخرى أيضاً وذلك أن الكثير من الكلام لا يحدث لذاذة في الاستماع لكنه رغم ذلك ينتهي إلى مبتغاه فهل يعني ذلك أنه ليس فصيحاً؟

وقوله الدال بإحدى الدلالات الثلاث فهنا فصل كما يعرف عند أصحاب الحدود ، وذلك أنه قصر الدلالة على هذه الدوال الثلاث وهي على ما نعتقد: اللفظ ، الإشارة ، الخط. ومعلوم أن الدوال خمسة كما حددها الجاحظ ، حيث قال في كتابه (البيان والتبيين): "وجميع أصناف الدلالات على المعاني من لفظ وغير لفظ ، خمسة أشياء لا تنقص ولا تزيد: أولها اللفظ ، ثم الإشارة ، ثم العقد ، ثم الخط ، ثم الحال التي تسمى نصبة"⁽²⁷⁾

ولعل البحراني بصنيعة هذا في الدوال وجعلها ثلاثاً قد رمى إلى المتعارف عليه منها والمستعمل في دورة التخاطب ، نظراً لأن هذه الثلاث المذكورة من طرفه وهي اللفظ، ثم الإشارة ، ثم الخط في آخرها ، تستعمل وبشكل رئيس في التواصل بين البشر عبر مختلف الأزمنة مع التفاوت في سبق ظهور أحدها للآخر ، وإن كنا نرى خلاف عرضها مرتبة هكذا إذ إننا نحسب الإشارة هي أصل التواصل بين بني البشر دون منازع ، ثم يأتي اللفظ في مقام التنبيه إذا حدث هناك عنصر الحضور ، ثم الخط إن غاب هذا العنصر ، وهذا لاشك أمر ظاهر ، أما بالنسبة للدالتين

الضحى: 9-10.

التضام أو حال التركيب:

اشتراط البحراني لكي تحصل الفصاحة الحرفية توفر مُعطى الاعتدال و كذا معطى عدم التنافر ، وكذا الخفة في التلفظ به.⁽³⁵⁾

فصاحة الكلمة:

كما رأى البحراني شروطا لفصاحة على المستوى الثاني بعد مستوى الحرف (الكلمة) وعد منها أموراً هي:

*-التوسط:

ويعني به التوسط في عدد الحروف يقول الشيخ البحراني في ذلك: "وأعذبها الثلاثية ، لاشتمالها على المبدأ والوسط والنهاية ، فإن الحرف الواحد لا يفيد ، والتي من الحرفين ليست في غاية العذوبة ، والرابعة والخامسة ظاهرتا النقل"⁽³⁶⁾. ويرى البحراني متأثراً بما قاله ابن جني فيما يخص حجم اللفظ ، قال ابن جني: "... وذلك أن الأصول ثلاثة: ثلاثي ، ورباعي ، وخماسي. فأكثرها استعمالاً ، وأعدلها تركيباً ، الثلاثي. وذلك لأنه حرف يبتدأ به ، وحرف يحشى به ، وحرف يوقف عليه"⁽³⁷⁾.

*-الاعتدال في حركاتها:

حيث يرى أن عدل الالبنية ما اشتمل على حركتين وساكن ، فإن اقتضى الأمر فثلاثة على الأكثر ، وما زاد على ذلك يراه خارج المجموعة ، وذلك لنقله ولهذا لا يُحتمل في نظام الشعر .

*كونها عربية غير مولدة ، وليست من خطأ العامة:

أثبت المحقق عبد القادر حسين في هامش الصفحة 44 في كتاب أصول البلاغة من الألفاظ العامية التي تخل بالفصاحة قولهم: تفرعن فلان ، إذا وصفوه بالتجبر ، ومثل قابري التي هي من ألفاظ عوام النساء ، قال الشاعر :

قَدْ قُلْتُ لَمَّا لَجَّ فِي صَدِّهِ

اعطف على عبيدك يا قابري⁽³⁸⁾

*كونها قد أجريت على مقاييس كلام العرب:

كما أثبت المحقق أيضاً في هامش المتن من الأمور التي لم تجر على كلامهم استعمال كلمة (أيم) بمعنى: ثيب ، وإنما هي للمرأة التي لا زوج لها بكرا كانت أو ثيباً ، واستعمال كلمة قسط بمعنى عدل ، وهي للظلم.⁽³⁹⁾

*كونها مألوفة غير غريبة ولا وحشية:

وأثبت المحقق في هامش متن الكتاب أمثلة على ذلك مثل كلمة درديس ومرمريس بمعنى الداهية.⁽⁴⁰⁾ وبعدما أنهى حديثه عن الفصاحة المتعلقة بحال الأفراد ، ثم التركيب ، شرع يتكلم عن فصاحة تتعلق بالبديع ، حيث جعل مبحث البديع اللفظي من متعلقات الفصاحة ، وهذا أمر جدير بالذكر⁽⁴¹⁾ ، يقول عبد القادر

إلى الشفتين ، لكنه أضاف لها مخرجا الخيشوم الذي منه النون وحروف الغنة. وهذا أمر غير معهود حتى مع كبار الدارسين من أمثال الجرجاني والقزويني والسيوطي وغيرهم⁽³⁰⁾ ، وذلك عند الكلام عن الفصاحة اللهم عدا مسألة تنافر الحروف ، لكن ذلك لا يتجاوز حد وصف الظاهرة فتجدهم يقتربون من هذا الأمر قليلاً لأن ذلك من شأنه أن يفسر الظاهرة ، وهذا الضرب من التناول للفصاحة أعني الاستعانة بالمبحث الصوتي- من شأنه أن يقودنا إلى حقيقة مفادها أن الظاهرة اللغوية مهما اختلفت أبعادها وتشعبت مسالكها لا تجيز للباحث أن يدرسها بمعزل عن تكامل مباحثها بدءاً من المبحث الصوتي وانتهاء عند تحقق الحدث الكلامي ، وأن الفصاحة منشؤها التألف بين الضميين أو العنصرين المتجاورين ولا يمكن ذلك إلا بالرجوع إلى منشأ الحرف . ولعله قصد من خلال هذه الالتفاتة التنويه بقيمة الحرف المفرد في رصانة أعضاء الجسد اللغوي الواحد وذلك باعتباره قاعدة الكلام وأصله ، فما من شك أن أي تهمل يمس البناء اللغوي مرده إلى عدم احترام مبدأ الألفة بين الحروف.

فصاحة الحرف:

يرى البحراني مستنداً في ذلك على ما قاله الخليل- أن الحرفين (العين والقاف) لا يخلان في بناء لغوي إلا حسناً ، وذلك لأنهما أسهل الحروف وأطلقها حيث إن العين كما جاء عنده- أفصحها جرساً ، وألذها سماعاً ، أما القاف كما نكر هو- فهي أمتنها وأصحها جرساً ، ثم انتقل إلى السين والدال حيث قال عنهما: "وكذلك السين والدال في البناء ، إذا كان اسماً"⁽³¹⁾ ، للين الدال على صلابة الطاء وكرازتها⁽³²⁾ وارتقاعها عن خفوت التاء ، وكذلك حل السين بين مخرج الصدا والزاي"⁽³³⁾.

المحاسن التي تتعلق بأحوال الحروف:

يرى البحراني أن للحرف محاسن تتعلق بأحواله ، والمقصود من هذه الأخيرة أي أحوال الحرف (الحذف ، الإعنات ، التضام):

الحذف:

لقد ألفنا عنصر الحذف في مستوى ثان وهو الكلمة ، بينما الحال مع البحراني فيرى أنه يتعلق بأحاد الحروف أيضاً، وقد عرف ذلك قائلاً: "وهو الاحتراز عن حرف أو حرفين في الكلام إظهاراً للحذف في تلك اللغة..."⁽³⁴⁾ ، والمثال الذي ساقه لذلك كان على حرف الراء مع واصل بن عطاء (ت181هـ) حيث كان ألثغ فاحش اللثغة ، واختبره يوماً أحدهم في كيفية التعبير عن قولهم: (اركب فرسك ، واطرح رمحك) فقال في الحال: (اعل جوانك ، وألق قتاتك). ففجح في الاختبار بفضل ما آتاه الله عز وجل من سرعة بدهة وحسن تخلص.

الإعنات:

وهو عنده التزام حرف قبل الروي ، وقد مثل له بقوله تعالى ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾ (أو أما السائل فلا تنهر)

الأخير :إن البحراني قد أبلى في سبيل بيان حقيقة الفصاحة ، وبيان مكانتها المكيّة في المبحث اللغوي البلاغي بلاءً حسناً ، حيث نسب لها العلمية وأضافها لها ، كما اشترط في تحققها توفر عنصر البديع ، وهذان أمران لم نعهدهما عند الكثير من الدارسين للفصاحة ، مما يجدر بنا أن نسجل هذا له وننوه بصنيعه الفريد في الموضوع بما نحسبه سبقاً في هذا المجال.

حسين عن هذا : "فشرطُ فصاحة الكلام عند المؤلف أن تتوفر فيه المحسنات اللفظية ، وهي ملاحظة جديرة بالتسجيل ، حيث خلت منها كتب البلاغة ، فالذي نقرأه في كتب البلاغة... أن الكلام يكون فصيحاً إذا خلص من التنافر ، والتعقيد ، وضعف التأليف...دون أن يشير واحد منهم إلى اقتران الكلام بألوان من البديع حتى يكون فصيحاً"⁽⁴²⁾ .
وإذا كان لابد من خاتمة لهذا الموضوع ، نقول في

الهوامش

- 1- هذا الشعر منسوب إلى الإمام علي كرم الله وجهه ورضي عنه
- 2- العمدة لابن رشيق تح النبي عبد الواحد شعلان ج 1 ص 89 مكتبة الخانجي القاهرة ط 01 2003م
- 3- ستأتي ترجمته لاحقاً (ينظر ص
- 4- المقاييس لابن فارس تح شهاب الدين أبو عمرو ص 848 دار الفكر بيروت لبنان ط 02 1998م
- 5- الصناعتين للعسكري تح علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم ص 13 دار الفكر العربي ط 02 دت
- 6- دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني تصحيح الشيخ محمد هبده والشيخ محمد محمود الشنقيطي ، علّق على حواشيه محمد رشيد رضا ص 28 ، 29 دار الكتب العلمية بيروت لبنان ط دت
- 7- الصناعتين للعسكري ص 13 تح علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم دار الفكر العربي ط 02 دت
- 8- المصدر السابق نفسه ص 08 تح علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم المكتبة العصرية صيدا بيروت ط 1986م
- 9- 10 ، 11 ، 12 ، 13 ، 14 ، 15 ، 16 نظرا لعدم حصولنا على المصادر التي ترجمت لميثم البحراني ، فإننا استعنا بالشبكة العنكبوتية ، من خلال الموقع التالي: <http://www.al-asfoor.com/?id=1012> . الكاتب: إعداد / حوزة الهدى للدراسات الإسلامية. التاريخ: 2010/03/08 الوقت: 21:26.
- 17- هذا اللفظ (الجملة) هي للمؤلف ينظر أصول البلاغة لميثم البحراني ص 24 ، 25 ، 26 ، 27. تحقيق الأستاذ عبد القادر حسين دد ، ط ، دت 18- المصدر السابق نفسه ص 35.
- 19- ينظر مثلاً السيوطي في منظومته البلاغية إذ يقول : "يوصف بالفصاحة المركب *** ومفرد ومنشئ مرتب" شرح عقود الجمان ، السيوطي دار الفكر ط 1939م ص 03.
- 20- أصول البلاغة ، البحراني ص 35.
- 21- المصدر السابق نفسه.
- 22- سيأتي الحديث عنها لاحقاً
- 23- المصدر السابق نفسه ص 36.
- 24- المصدر السابق نفسه.
- 25- المصدر السابق نفسه ص 33.
- 26- المصدر السابق نفسه ص 25.
- 27- البيان والتبيين للجاحظ ج 1 ص 76 تح وشر عبد السلام هارون مكتبة الخانجي بالقاهرة ط 07 1998م
- 28- المصدر السابق نفسه ص 80
- 29- المصدر السابق نفسه ص 81
- 30- إلا القليل منهم ، وذلك كابن سنان في كتابه سر الفصاحة ، حيث استعان بالمبحث الصوتي وتناول المخارج وهي عنده ستة عشر مخرجا ، وقال الخفاجي في مقدمة كتابه هذا : " ونحن نذكر قبل الكلام في معنى الفصاحة نبذا من أحكام الأصوات والتنبيه على حقيقتها ثم نذكر تقطعها على وجه يكون حروفا متميزة ونشير إلى طرق من أحوال الحروف في مخرجها ثم ندل على أن الكلام ما انتظم منها..." يراجع سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي ص 29 دار الكتب العلمية ط 01 1982م
- 31- أي إذا كان ذلك البناء (اللفظ) اسماً ينظر العين للخليل مج 1 ص 38 باب (فوائد متفرقات في كتاب العين) شرح وتح عبد الحميد هندواي منشورات محمد علي بيضون دار الكتب العلمية بيروت لبنان ط 01 2003م
- 32- يُراد من الكزازة الصلابة والانقباض لسان العرب لابن منظور مج 05 (ر-ز) ص 465 تح عامر أحمد حيدر مراجعة عبد المنعم خليل إبراهيم مادة (كزز) منشورات محمد علي بيضون دار الكتب العلمية بيروت لبنان ط 01 2003م
- 33- ينظر العين للخليل مج 1 ص 38 باب (فوائد متفرقات في كتاب العين) شرح وتح عبد الحميد هندواي منشورات محمد علي بيضون دار الكتب العلمية بيروت لبنان ط 01 2003م ، و أصول البلاغة ، البحراني ص 40 ، 41.
- 34- المصدر السابق نفسه ص 41.
- 35- المصدر السابق نفسه ص 41 ، 42 ، 43.
- 36- المصدر السابق نفسه ص 43.
- 37- الخصائص لابن جني مج 1 ص 105 تح عبد الحميد هندواي منشورات محمد علي بيضون دار الكتب العلمية بيروت لبنان ط 02 2003م

- 38- أصول البلاغة ص 44 هامش رقم 01
39- المصدر السابق نفسه ص 44 هامش رقم 02.
40- المصدر السابق نفسه ص 44 هامش رقم 03.
41- ينظر مايتعلق بالبديع اللفظي من المصدر السابق نفسه (الفصل الثاني).
42- المصدر السابق نفسه ص 26.